إشكالية النّقد النّحوي والصّرفي وموقف النّقاد القدامى من ذلك

د. يوسف بن نافلة

جامعة الشلف

الملخّص :

تتناول المداخلة حقيقة الأدب ،،ثم علاقة الأدب بعلم النفس ،باعتبار أنّ الأدب والنّقد الأدبي اتصالا وثيقا بعلم النفس ،ثم الحديث عن عناصر الأدب ،وأنواعه،والنقد ،والناقد وثقافته ،ووظيفة النقد ،وغايته ،ثم مناهج النقد الأدبي المختلفة ،وفي الأخير أتناول بالتفصيل قيمة النّقد اللفظي عند النقاد ،ومالجديد لدى النقاد القدامى في نقدهم النحوي والصّرفي ؟ وماهي الأحكام الذوقية الخاصة بالنقاد ؟مع الإشارة إلى أبيات منتقدة نحويا ،وصرفيا ،ومامنهج النقاد في الدرس النّحوي والصّرفي ؟.

لقد كان لمتقدّمي النّحويين واللغويين أثر كبير في النّقد الأدبي ،ذلك أنّ طائفتين من نقاد الأدب العربي عاشوا جنبا إلى جنب منذ أواخر القرن الأوّل الهجري :أمّا الأدباء فهم الشعراء ، والرّؤساء ،والخلفاء ممن وقف أهل الاختصاص على نقدهم ،وأمّا اللّغويون والنّحويون فأولئك الذين أوجدتهم الروح الإسلامية الجديدة ،وهيّأت لهم أسباب النحث المتشعّب فكانوا أمزجة خاصّة ،وذهنية خاصّة في تاريخ النّقد الأدبي .

ثم نجد نوعا من النّقد يراد به خدمة الفنذ الشعري ،وخدمة تاريخ الأدب ،نجد عند اللغويين ،وعند كثير من النّحاة ،فلاعصبية ،ولاهوى جائزا ،ولا تأثرا حاضرا ،ولا انحرافا عن الحقّ رغبة أو رهبة ، وإنّما هو الشعور الهادئ ،والتحليل ،والدّليل ،وقرعة الحجّة بالحجّة ،وذكر الأسباب .وهذا النّقد متشعّب فسيح يمسّ الأداة العربية كلّها ،ويحلّل النصوص من جميع نواحيها :ضبطا ،وبنية ،وتركيبا ،وفنّا ،ومن هذا النّقد ما يقوم على الأصول الفنية التي قرّرت في تقدير الأدب .[1]

– فيم تكمن قيمة النّقد اللّفظي عند النّقاد ؟

يرى الدكتور سعود بن عبد العزيز الخنين أنّ النّقاد يغلب عليهم أنّهم أهل معان ،والسّواد الأعظم من أحكامهم يختصّ بها ويدور في فلكها ،ولكنّك تجد لهم عناية بالألفاظ كبيرة ،فهم لا ينفكون في أوائل دروسهم يؤدون اشتراط العلم بالنّحو ،والإعراب للنّاقد ،والأديب ،ويشدّدون النّكير على مَن يتكلّم في المعاني أو يُنشئ الأدب أو يخوض في النّقد وهو لا يُتقن علم النّحو[2] ،حتى لقد جعل ابن الأثير علم النّحو في علم البيان من المنظوم بمترلة (أبجد)في تعليم الخطّ ،حيث قال :وهو أوّل ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطلق باللّسان العربي ليأمن معرّة اللّحن [3]

وطالما أوصى النقاد الكاتب والأديب بمعرفة اللغة وبإتقان النّحو ،وألزموه إدمان الإعراب ليلا ونهارا ،حتى يصير ذا ملكة جيّدة .[4]

قال ابن طباطبا :وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مَرامه وتكلّف نظمه ،فمَن نقصت عليه أداة من أدواته لم يَكمل له ما يتكلّفه منه ،وبان الخلل فيما ينظمه ،لحقته العيوب من كلّ جهة ،فمنها ،وهو أولها :التوسع في علم اللغة والبراعة في فهم الإعراب ..[5]

وعدّ قدامة بن جعفر من عيوب اللّفظ أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة ،وقال معترفا بالفضل لأهله وواضعا الحقّ في نصابه :وقد تقدّم مَن استقصى هذا الفنّ ،وهم واضعوا صناعة النّحو .[6]

واشتراط صحة اللّفظة في النحو ،واستقامتها في الصّرف فاش عندهم لا يجهد الباحث في إثباته ،ولا يكاد يخلو منه كتاب ،ويمكن القول :إنّهم في ممارسته على الشعر أكثر تشدّدا من النحويين ،حيث لا يستسيغون

أمورا يشفع لها عند بعض النّحويين سماع نادر ،أو قياس بعيد ،والنّقاد يَعجبون ولا يَعذُرون حين يكون اللّحن ظاهرا ،والخطأ في مسألة لا تخفى[7] ،فابن الأثير يُشنع على أبي نواس قوله:

يا خير من كان ومن يكون إلاّ النبيُّ الطّاهرُ الميمون

قال :فرفع في الاستثناء من الموجب ،وهذا من ظواهر النّحو ،وليس من خافيه في شيء [8] ،ولا تعجب إن أنت رأيت نحويا يقبل ضمّة أبي نواس ويتأوّلها ،في حين أنّ النّاقد يُنكرها ،ولا يَعذر صاحبها .

واستكثروا على مثل أبي نواس أن يغلط فيما لا يغلط فيه مثله ،إذ قال في وصف الخمر :

كأنّ صُغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذّهب

قال ابن الأثير :وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس ،فإنّه من ظواهر علم العربية ،وليس من غوامضه في شيء ،لأنه أمر نقليّ يُحمل ناقله فيه على النقل من غير تصرّف .وقوله :(صغرى)و(كبرى)غير جائز ،فإنّ (فُعلى)(أفعل) لايجوز حذف الألف واللاّم منها ،و إنّما يجوز حذفها من (فعلى)التي لا (أفعل)،نحو :(حبلى)،إلاّ أن يكون (فعلى)(أفعل)مضافة ،وهاهنا قد عَريت عن الإضافة وعن الألف واللاّم .فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قُربه وسهولته [9]

وشانوا على المتنبي قوله :

جلا كما فلْيك التّبريجُ أغذاء ذا الرَّشأ الأغنّ الشّيحُ

وأرجعوا سبب خطئه فيه إلى أنّه لم يكن علمه بالعربية طائلا.[10]

ومن طرائف قسوتهم على الشعراء حين يَلحنون في النحو أو يَضعفُون في اللغة ما علّقه أحدهم على بيت للمتنبي ،قال :وممّا يدلّك على ضعفه في العربية ما حدّثنا به شيخنا أبو الحسن المهبلي ،قال :حضرتُه في مجلس لبعض الرؤساء ،وجرت مسألة في المذكّر والمؤنّث ،فقلت :قد يُؤنّث المذكّر إذا تشبّث بمؤنّث ،فقال :مَن قال هذا ؟ قلت :قاله سيبويه ،

مشين كما اهتزّت رياح تسفّهت أعاليها مرُّ الرياح النواسم

ومثل ذلك :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدّم

فقال –يعني المتنبي –لا أعرف هذا ،ولعله مذهب للبصريين ،ولا أعمل على قولهم،قال :فقلت له :هذا في كتاب ابن السكيت في المذكر والمؤنث ،فقال :ليس ذلك فيه ،فأخرجته من خزانة الرئيس الذي كنّا عنده ،فلمّا قرأه قال :ليس هذا بخطّ جيّد أنا أكتب خيرا منه ،فقلت :ما جلسنا للتخاير بالخطوط فانقطع في يديّ [11].ذلك شأنهم مع الشعراء ،يَعيبونهم ويمايزون بينهم ،ويفاضلون بمعرفة الإعراب وإتقان العربية ،ولهم مع النّقاد أيضا مثله ،فهم يَنقمون على الذي لا يُحسن النّحو ،ثم يتصدّى للنّقد ،فقد قال الآمدي منافحا عن المتنبي على أبي الطيب أحد رجلين :أحدهما معنوي مدقّق لاعلم له بالإ'راب ،ولااتّساع له في اللغة ،فهو يُنكر الشيء الظاهر ويَنقم الأمر البيّن ،كفعل بعضهم ،وفي قوله : (لأنت أسود في عينَي من الظُّلم) فإنّه أنكر (أسود من الظلم)و لم يَعلم أنّه قد يحتمل هذا الكلام وجوها يصحّ عليها ،وانّ الرّجل لم يُرد (أفعل) التي للمبالغة .[12]

– مالجديد في نقدهم النحوي والصّرفي ؟ وما هي الأحكام الذّوقية الخاصة بالنّقاد ؟

أمّا الجديد في نقدهم النحوي والصرفي فيتمثّل في التميّز الواضح في أربعة أمور تتعلّق بمباحثهم النّحوية والصّرفية وهي على النّحو الآتي :

أ– أحكام ذوقية خاصة بالنّقاد [13]:

لقد تميّز النقاد بأحكام لهم خاصة ،لا نكاد نجدها في كتب النحو ،فإن ّ النحويين يعرفون خطأً،وصواباً ، وكثيراً،وقليلاً،ومسموعاً،ومقيساً،ويزيد عليهم نقدة الأدب ومعايير جديدة ،يُحكّمون فيها الذّوق ،ويراعون التناسب .وقد شرح ابن الأثير ذلك بصراحة ووضوح ،بيّن فرقا في المنهج كبيرا جدّا بين الفريقين ،يقول :

(ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الُسن لامع الجواز ،وهذا كلّه يرجع إلى حاكم الذّوق السليم ،فإنّ صاحب هذه الصناعة يُصرّف الألفاظ بضروب التصريف ،فما عذُب في فمه منها استعمله ،وما لفظه فمُه تركه ...وقال :وأسرار الفصاحة

لا تؤخذ من علماء العربية ،وإنّما تؤخذ منهم مسألة نحوية ،أو تصريفية ،أو نقل كلمة لغوية ،وما جرى هذا المجرى ،وأمّا أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها [14]

ومن الأمور التي يقرّر النحويون صوابها ،ويُقرُّ بها النّقاد ،إلاّ أنّهم لا يستحسنونها ،لأنّ طبائعهم تَنفر منها ،وأذواقهم لا تأنس بها ما جاء في قول البحتري :

ثلاثة جلّة إن شُوْوروا نَصحوا أو استعينوا كفوا أو سُلّطوا عدلوا

قالوا (شُوْوروا) بواوين ،ولا يجوز إدغام الأولى في الأخرى على مذهب النحويين ،لأنّ الواو منقلبة عن ألف (فاعل)فلا يجوز إدغامها ،والنطق ب(شُوْورَ)وبابه منه الطبع ،والغريزة تفرُّ إلى همزة الواو الثانية [15] ،ومثل ذلك كلمة (سُوَيداواتها) الواردة في قول أبي الطيّب :

إنّ الكريم بلا كرام منهم مثلُ القلوب بل سُويداواتها

فإنها لا تعدو أن تكون تصغيرا ل(سوداء) جرى على القياس وجمعا لها على القياس أيضا ،لكن قال ابن سنان :ف(سويداواتها) كلمة طويلة جدّا ،فلذلك لا أختارها .[16] ،ولعلّهم استوحشوا من احتماع عملين :التصغير والجمع بالحروف في كلمة ليست بالقصيرة ،وقال ابن الاثير معلّقا :قال :إنّ لفظة :(سُويدواتها) طويلة ،فلهذا قَبُحت ،وليس الأمر كما ذكره ،فإنّ قُبح هذه اللّفظة لم يكن بسبب طولها ،وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة ،وقد كانت وهي مفردة حسنة ،فلما جُمعت قَبُحت ،لا بسبب الطول ،والدليل على ذلك أنّه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال ،وهي مع ذلك حسنة ...[17]

وكذلك حكَم ابن سنان على (حَوباتها) من قول أبي تمام :

العيس تعلم أنّ حوباواتها ربح إذا بلغتك إن لم تُنحَر

و لم يعجبه أيضا قول أبي تمام :

أنله باستماعكه محلاّ يفوت عُلوُّه الطُرف الطَّموحا

قال :فليس بقبح قوله :(باستماعكه) خفاء لكثرة الحروف [18]

وقريب من هذه كلمة (المتديّريها) في قول المتنبي :

أسائلُها عن المُتديّريها فما تدري ولا تُذري دُمُوعها

(المتديّروها) :المتخذوها دارا ، ومثلها كلمة (الزائرهم) في قول أبي تمام:

فلو عاينتهم والزائريهم لما مزت البعيد من الحميم

فما هما في النحو إلاّ اسم فاعل اتّصلت به (أل) الموصولة ،واتّصل به في آخره ضمير المفعول به أو المضاف إليه ،على خلاف بينهم ،وما بها عند النحويين بأس ،ولا في لفظها حرج ،ولكن النقاد يقولون :لفظة (المتديّريها) لو وقعت في بحر صاف لكدّررته ولو أُلقي ثقلها على جَبل سام لهدّه ،وليس للمقت فيها نهاية ،ولا للبرد معها غاية ،وقال الصاحب :ومن أطمّ ما يتعطاه التفاصح بالألفاظ النافرة ،والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خِباء وغذيّ لبن ،و لم يطأ الحضر ،و لم يعرف المدر .[19] وقال ابن الأثير عن (الزائريهم):استعمال هذا قبيح جدّا ،وأورده مع أمثلة المنافرة وإيراد غير اللاّئق.[20]

ومن ذلك أيضا أن تجدهم يطربون للّفظة مفردة ،ويرونها رائقة حينئذ حسنة ،ويستثقلونها ،ويكرهونها مثنّاة ،فقد أعجبتهم كلمة (أخدعا) في قول الصمة القشيري :

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليّا وأخدعا

و لم تعجبهم ،وانتقدوها عند أبي تمام :

يادهر قوّم من أخدعيك فقد أضجرت هذا الأنام من خرقك

قال ابن الأثير :ألا ترى أنّه وُجد لهذه اللّفظة في بيت أبي تمام من الثّقل على السمع والكراهية في النفس أضعاف ما لها من بيت الصمّة ابن عبد الله من الرُّوح ،والخفّة، والإيناس ،والبهجة ،وليس سبب ذلك إلاّ أنّها جاءت موحّدة في حالة التثنية ،وإلاّ فاللّفظة واحدة ،وإنّما اختلاف صيغتها فَعَل بها ماترى[21] .

فالصّواب والحسن عندهم غير متلازمين دائما ،فلا تَعجب إن سمعت ناقدا يجهر بصواب لفظة ويجهر بنقدها أيضا ،أو رأيته ينتقد الصّحيح ويستحسن الملحون ،كما فعل المرزباني في قول العتابي :

ماذا عسى مادح يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهيرُ

فُتَّ المادح إلاّ ألسُننا مُستنطقات بما تُخفي الضّمايرُ

قال الناقد :قال :(المادح) ،و(المدائح)أحسن منها ،وأخفُّ على السمع ،وأشبه بألفاظ الحُذّاق ،والمطبوعين ،وقال :(مُستنطقات)،(ونواطق) أحسن ،وأطبع ،ثم قال :(الضمايرِ) فختم البيت بأثقل لفظة ،لو وقعت في البحر لكدّرته ،وهي صحيحة ،ولكنها غير مألوفة ،ولا مستعذبة ...[22]

ويشبه هذا انتقادهم قول المتنبي :

أيفطمُه التَّوارب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

حيث قال أحدهم :فلفظة (التوارب) على سلامة مصدرها جافية جدّا [23]

ومنه رأي ابن الأثير في كلمة (فارح) من قول الشاعر :

فما أنا من حُزن وإن جلّ جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

وقال :وهذا غير حسن ،وإن جاز استعماله .[24]

وفي قول البحتري :

لقد أرشدتنا النائبات و لم يكن ليرشدَ لولا ما أرتناه من يغوى

قال ناقده :(يغوى) رديئة جدّا ،لأن المعروف :غَويتث :أغوى ،ويجوز أن يكون البحتري قالها كذلك ،وإذا ضُمّت الياء من (يُغوى) خلّص البيت مناستعمال لغة رديئة ....[25]

وقول أبي تمام في وصف الرّماح :

مُثقّفات سَلبن العُرب سُمرتها والرّوم زُرقتها والعاشق القَضفا

قال :العُرب ،والرّوم ،ثم قال :والعاشق ،ولوصحّ أن يقول :العُشّاق ،لكان أحسن ،إذ كانت الأوصاف تجري على سنن واحد ،وكذلك قوله :سُمرتها ،وزُرقتها ثم قال :القضبا ،وكان ينبغي أن يقول : قضفها ،أو دقتها .[26]

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر :

صفراء مجّدها مرازبها جلّت عن النُّظراء والمثل

فجمع وأفرد في معنى واحد ،وهو أنّه قال :(النظراء) مجموعا ثم قال ك(المثل)مفردا ،وكان الأحسن أن يقول : النظير والمثل أو (النظراء ،والأمثال).

وقال المتنبي :

وعجاجة ترك الحديد سوادها زنجا تبسّم أو قَذالا شاءبا .

وقال الناقد :الأحسن في صنعة الشعر لو أمكنه أن يقول :(زنجيّا تبسّم أو قذالا شائبا) أو (زنجا تبسم أو أقذلة شائبة) فيأتي بالجمع مع الجمع والمفرد مع المفرد [27].

وقال الأعشى :تقول وقد قرّبت مُرتَحلا ياربّ جنّب أبي الأتلاف والوجعا

وعلّق المرزباني :والذي يوجبه نسج الشعر أن يقول :ربّ جنّب أبي الأتلاف والأوجاع ،أو التلف ،والوجع [28]

والنّحويون يردّدون دون حرج أنّ الجارّ والمجرور يُتصرّف فيهما ما لايُتصرّف في غيرهما ،فيؤتى بهما قبل العامل أو بعده ،قريبا منه أو بعيدا ،غير أنّ النقاد فيه رأي وجيه ونظر دقيق ،فلايرضون بكلّ تصرّف فيه .

وفي قول عروة بن أذينة :

واسق العدوّ بكأسه واعلم له بالغيب إن قد كان قبلُ سقاكها

واجز الكرامة من ترى أن لو له يوما بذلت كرامة لجزاكها

قال الحاتمي :فهذا من التركيب الوحشي المضطرب والنسج المختلف .

كما على الشاعر قوله :

فخلّفهم بردّ البيض عنهم وهامُهم له معهم مُعارُ

قال ابن الأثير :قوله :فهامهم له معهم ،مما يثقل النطق به ،ويتعثّر فيه اللسان ،لكنه أقرب حالا من الأول [29]. وعابوا قول المتنبي :

كأنّ رقيبا منك سدّ مسامعي على العذل حتى ليس يدخُلها العذلُ

قال ابن وكيع:إعادة(العذل) هاهنا قبيح في الكلام ،جائز في الشعر ،أنشدنا في أبو بكر بن سيّار النحوي ،قال :أنشدنا أبو جعفر النحاس :

لعمرك ما مَعن بتارك حقّه ولا مُنسىء مَعن ولا مُتيسّرُ

فأعاد (معنا)مرتين ،والأجود تركه [30]

وعاب الحاتمي فيما نقل عنه ابن رشيق بيت الأعشى :

فرميتُ غَفلة قلبه عن شاته فأصبتُ حبّةَ قلبها وطحالها

لأن تكرير (القلب) عنده حشو لافائدة فيه [31]

ونقدوا به قول البحتري :

صُنتً نفسي عمّا يُدنّس نفسي ةترفّعتُ عن جدا كلّ جبس

إذ أعاد (النفس) مرّتين [32]

ومثله في العيب عندهم قول أبي سعد المخزومي :

أشيب و لم أقض الشباب حُقوقه و لم يمض من عهد الشباب قديمُ

قال الصولي :ما أحسن في ذلك ،لأنه ذكر (الشباب) مرّتين ،وكان يجب أن يغيّر الأول أو الثاني ،وتغيير الثاني أشبه ،لأن قوله :(و لم يمض من عهد الشباب) ،قول من لم يذكر (الشباب) في صدر بيته ،و لم يتكلّم الحذّاق في هذا إلاّ بردّ ضمير عليه ،فبقال :(و لم يمض منه) ،أو (عليه) ،ولو قال :(من عهد عليه قديم) كان أشبهَ.[33]

ومن الأبيات المنتقدة أيضا نحويا وصرفيا قول امرئ القيس :

أيا راكبا بلّغ إخواننا من كان من كندة أو وائل

قال أبو الحسن الجرجاني :نصب (بلّغ) وهذا من أخطائه[34] ،يريد :غيّر حركة بناء الأمر ،وهي السكون إلى الفتحة .

وقول البحتري :

باد بأنعمه العافين يُزيلهم على الأشقّاء فيها والقرابينا

قال الناقد : (القرابين) جمع (قربان) ،وإنّما أجراه مجرى (المسلمين) ظنّا منه أنّ ياءه كياء الجمع التي تكون واوا في الرّفع ،وهذا بعيد جدّا [35]

وقول البحتري :

وحارس ملك ما يزال عتاده مهنّدة بيض وخطّيّة سُمْرُ

قال المعري:جعل (عتاده)حبرا ،وهو معرفة ،و(مهندة) اسما ،وهو نكرة ،وهو عكس للوجب من تعريف المبتدأ وتنكير الخبر [36]

وقول البحتري :

عُبُد يعتق في إنعامه منهم الدّهر وحرّ يُسترق

قال المعري :هذا رديء لأن (عُبُدا) جمع (عبد) ،وإنّما يجب أن يقال : (عُبُد تعتق) بالتّاء أو تُعتق [37]

وقول المتنبي :

حشاي على جمر ذكيّ من الهوى وعيماي في روض من الحسن ترتعُ

قال العميدي :ولو قال: (ترتعان) كان أصوب وأبلغ لولا ضرورة القافية .[38]

وقول الفرزدق :

وعضّث يا ابن مروان لم يدع من المال إلاّ مُسْحتا أو مُجلّفُ

البيتُ يُروى بالرّفع [39]مع أنّ ظاهر البيت (مجلف) معطوف على (مسحتا) المنصوب ، لكنّ الفرزدق خالف الظاهر .

وقول البحتري :

لقد أرشدتنا النائبات و لم يكن ليرشُد لولا أرتناه من يَغوى

قال المعري :(يغوى) رديءة جدّا ،لأن المعروف (غويت :أغوي).[40] ووصفه بالرداءة هو الرديء لأنّ فتح مضارعه ثابت .

وقول المتنبي :

مضى بعد ما التفّ الرّماحان ساعة كما يتلقّى الهُدب في الرّقدة الهُدبا.

قال أبو الحسن الجرجاني ناقلاالنقد عن غيره :عابوا عليه قوله هذا ،وأنكروا تثنية (الرّماح) وهي جمع (رُمح) .[41]

وقول البحتري:

كما رأيتُ الثُّلاثاءات واطئة من التّخلّف أعقاب الأثانينا

قال النّاقد : (الثلاثاء)عندهم مؤنث ،فإذا جُمع وجب أن يُقال :(الثلاثاوات)،كما يقال في ألفي التأنيث [42]

وقول المتنبي عن ناقته :

وتكرّمت رُكباتُها عن مَبرك تقعان فيه وليس مِسكا أذفرا

قال ابن الأثير :جمع في حال التثنية ،لأن الناقة ليس لها إلاّ ركبتان ،فقال :(رُكَبات) ،وهذا من أظهر ظواهر النّحو ،وقد خفي على مثل المتنبي .[43]

وقول المتنبي :

والمرءُ يأملُ والحياة شهيّة والشيبُ أوقر والشبيبةُ أنزقُ

قال ابن معقل الأزدي :الشهيّة) المشتهاة ،فهي (فَعيلة) بمعنى (مفعولة) ،فيقال لأبي الطيّب :لايجوز دخول الهاء (فعيلة) إذا كانت بمعنى (مفعولة) بل يستوي فيها المذكر والمؤنث ،فيقال :رجل قتيل ،وامرأة قتيل [44]

وغيرها من الأبيات المنتقدة التي ذكرها الباحث سعود بن عبد العزيز بن هبد الرحمن الخنين ،حيث أحصى في دراسته الأبيات التي انتقدها النقاد القدامى نحويا ،وصرفيا ،وقد بلغت حوالي ستين وأربعمائة بيت ،استخرجت من بطون كتب النقد القديم ،وصُنّفت ،ودُرست دراسة ناقدة فاحصة ،ترتعي تقويمها على ضوء كلام النحويين .

ب- نقول مهمة تشتهر في كتب النّحو :[45]

وهي مثل الكنوز التي يجب أن يُحتفى بها ،لأنّها إضافة إلى إرثنا النّحوي من أناس تقدّم عصرُهم وعلاشأنهم /وعاصروا أكابر علماء النّحو المتقدمين فمن النقاد من كان معاصرا لسيبويه (ت 180ه) ،أو محتبيا مثله بين يونس بن حبيب ، أو الخليل بن أحمد

(175ه) كمحمد بن سلام الجمحي (150-232ه)وهو صاحب أقدم وثيقة نقدية وصلت إلينا ،وقد أورد في كتابه فوائد نحوية مهمة عن معاصريه :عن يونس ،وعن سيبويه ،وعن عيسى بن عمر وغيرهم ،أكثرها يرويها بالمشافهة عنهم مباشرة ،وهو الذي عاش في عصر لم يصل إلينا منه إلاّ كتاب نحوي واحد ،وهو كتاب قرينه سيبويه ..،وابن قتيبة (213-276ه)المعاصر لتلاميذ الأصمعي ينقل رواية أخرى لبيت مشكل من شواهد سيبويه ...،والمبرّد الذي عُرفت عنه نقول كثيرة عنه فيها نقد نحويّ ،وتصريفيّ ،ولغويّ للشعراء ،لا توجد إلاّ عن طريقه ،جمعها عنه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في مقدمة المقتضب ،و بنقول أخرى عن لغويين كبار مثل أبي عمرو بن العلاء ،والأصمعي ،وأبي حاتم وغيرهم ،وفيها ملاحظات نقدية هامة ..

ج-تحقيقات دقيقة في المسائل :

وهي كثيرة ،أهمّها أنّهم لمكانهم من الشعر وعلاقتهم بالشعراء قد أفصحوا ،وبيّنوا في شأن الضرائر ،ونبّهوا الشاعر على ما يحسن منها ،فيباح له تقليده ،والقياس عليه ،وعلى ما لا يحسن ،فلا يصحّ منه أن يتّبعه في شعره ،وقد دلّت الأبحاث أنّهم أصحاب الفضل الأكبر في ذلك مع العلم بسبق شيوخ النّحو إلى الحديث عن الضرائر ،لكنه ليس في وضوح حديث النّقاد،فإمام النّحو سيبويه ذكر منها عددا كثيرا في كتابه غير أنّه لم يُميّز لقارئه مابين حسنها وقبيحها ،وكلامه يدلّ أنّها سواء ،فقد جمع في صدر حديثه عنها بين أحسنها ،وأقبحها ،فأولّها عنده ذكرا صَرفُ ما لا ينصرف ،وهو أحسنها عند كثير من العلماء ،وثنّاه بالحذف الذي في مثل : (قواطنا مكّة من وُرق الحمى)[46] ،ومأبعد ما بينهما في الحسن ،والقرب من القياس ..

وبعده المبرّد ،ولا تكاد تجد له في المقتضب غير الذي عند سيبويه ،وجاء من بعدهما الزجاجي في الجمل الذي سَرَدَ منها شيئا كثيرا ،وخالطا القريب بالبعيد ،و لم يُفصّل ،أو يستشهد أو يُمثّل ،ثم السيرافي وهو أوسع المتقدمين خوضا فيها ،وقد أشار إلى أنّ سيبويه ، لم يُفصّل فيها ،وقسّمها هو تقسيما شكليا من حيث الزيادة ،أو النقص ،أو التقديم ،أو التأخير ونحو ذلك ...

د-شواهد وروايات جديدة :

ومن جديدهم ،وفضلّهم علينا ،وعلى النّاس أنهم زادونا شواهد لا نجد في كتب في النّحو أو أنّها لم تشتهر فيها،وهذه يحسن الوقوف عندها والإفادة منها ،واغتنامها ،من ذلك شاهد بعضهم على ورود تصغير التعظيم :

يا سلمُ أسقاكِ البُريق الوامض والدِّيمُ الغادية الفضافضُ[47]

ومنه شاهدهم على وضع (تكون) في موضع (كان) ،وهو قول جرير :

قالت جُعادة ما لجسمك شاحبا ولقد يكون على الشباب نضيرا

أي :لقد كان .

والشاهد على استعمال (بعد) اسما مرفوعا خارجا عن الظرفية ،وهو قول الفرزدق :

وغدٌ وبعدُ غدٍ كلا يوميهما يُبدي لك الخيرَ الذي لم تعلم

قال ابن رشيق :هكذا أنشده برفع (بعد) جعله اسما [48]

وكذلك شاهد الفرّاء :

فلئن قومٌ أصابُوا عزّةً وأصَبنا من زمان رنقا

لَلَقد كانوا لدى أزماته لصنيعين لبأس وتُقى

هو:(فلقد كانوا) قال :وهذا باطل [49]

ما هو منهج النقّاد في الدّرس النحوي والصّرفي ؟

لقد حدّد الدكتور سعود بن عبد العزيز الخنين منهج النقاد في البحث النحوي والصرفي بقوله :

مازال النقاد في كلّ مناسبة يشترطون أن يكون المعنى شريفا ،واللّفظ بليغا ،وأن يكون صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ،ومُترّها عن الاختلال مصونا عن التكلّف ،فإن كذلك صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة [50] وكثيرا ما كان الجاحظ يحرص على الطّبع ،وينفّر من التكلّف [51] ويستأنس لذلك بقوله نعالى على لسان نبيه :(وما أنا من المتكلّفين).[52]

ويذكر أيضا سعود بن عبد العزيز قول الجرجاني في حديث عام يشرح مذهب النّقاد في تأويلهم ،ويلمز المجتهدين من النّحويين :ولو تصفحّت مع ذلك ما تكلّفه النّحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن :تارة بطلب التخفيف عند توالي الحركات ،ومرّة بالاتباع ،والمجاورة ،وما شاكل ذلك من المعاذير المتمحّلة ،وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجّة ،وتبيّنت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة ،وارتكبوا لأجله من المراكب الصّعبة التي يشهد القلب أن المحرّك لها والباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم ،والكَلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ،وألفته النّفس .[53]

وقدامة بن جعفر ينعى على من يُجهدون أنفسهم في أخطاء الشعراء بوجوه من التمحّل البعيد والتصويب المتكلّف فيقول : وليس إذا علمنا أنّ شاعرا أراد لفظة تُقيم شعره ،فجعل مكانها لفظة تُحيله ،وتفسده ،وجب أن يُتسب له ما يُتوهّم أنّه أراده ،ويُترك ما قد صرّح به ،ولو كانت الأمور كلّها تجري على هذا لم يكن خطأ[54]

ومن أجل ذلك عابو على على النحويين بعض تأويلهم التي أثقلها التكلّف ،لا يفرّقون بين تكلّف في قول شعر ،ولا في تأويله ،وإعرابه ،فكلّ قد كرهوه ،قال ابن قتيبة :والمتكلّف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبيُّنهم فيه مانزال بصاحبه من طول التفكّر ،وشدّة العناء ،ورشح الجبين ،وكثرة الضرورات وحذف بالمعاني حاجة إليه وزيادة بالمعاني غنى عنه .[55]

وبلغ بهم أيضا أن يُفضّلوا الإقواء في الرويّ ،وهو عيب عندهم بإجماع ،أن يفضّلوه على وجه نحويّ صحيح ،لأنهم أحسّوا فيه ثقلا ووجدوا فيه تعسّفا ،بل حكموا عليه أنّه العِيُّ بعينه ،قال ابن رشيق مفصحا عن منهجهم :"ومن الشعراء مَن يضع كلّ لفظة موضعها لا يعدوه ،فيكون كلامه ظاهرا غير مشكل ،وسهلاغير متكلّف ،ومنهم مَن يُقدّم ويؤخّر :إمّا لضرورة وزن أو قافية ،وهو أعذر وإمّا ليدلّ على أنّه يعلم تصريف الكلام ،ويقدر على تعقيده ،وهذا العِيُّ بعينه ،وكذلك استعمال الغرائب ،والشّذوذ التي يقلّ مثلها في الكلام..[56]

وينتقدون مَن يترك تأويلا قريبا ظاهرا ،ويستبدل به آخر عسيرا ذا تكلّف ،وظاهر منهجهم غضّ الطرف ،وكفُّ اللسان عن المتقدمين دون المتأخرين ،فقد قبلوا عن الأولين أشياء من التعسّف ،وحوشي الكلام .

أمّا منهجهم في السماع والرواية فتختلف مواقف النّقاد من المسموع ،والمرويّ عن العرب اختلافا يُشابه اختلاف النحويين فيه فلقد وجدتُ أكثر الناقدين لا يقبل إلاّ أن يكون الكلام جاريا على الشائع المطّرد ،والكثير في الاستعمال ،ولذلك أبَوا أن يركب الشاعر ما ليس بمستعمل إلاّ في الفرط ،ولا يُتكلّم به إلّا شاذّا ،وذلك عندهم الوحشي الذي مدح عمر الخطاب زهيرا بمجانبته ،وتنكّبه إيّاه ،فقال :كان لا يتّبع حوشيَّ الكلام .[57]

أما منهجهم في القياس فقد جعلوه مصدرا تُوسّعُ به اللغة ،ولم يشاؤوا أن يحصروا المتكلمين في ألفاظ المتقدّمين فحسب ،بل فتحوا لهم الأبواب بقدَر ،وخالفوا مَن يشرع باب القياس ،ويُلقي الحبل للأدباء أن يقيسوا ما يشاؤون قصد جعل الشعراء أمراء الكلام.[58]

أمّا مذهبهم في الضرورة الشعرية فإنّهم لايبيحون اللجوء إلى الضرائر إلاّ عند مضايق الكلام ،واعتياص المرام ،لأنها لاخير فيها ،وإن كان بعضها أسهل من بعض ،وليست متروكة لتحكّم الشعراء ،وإنما يقتصرون بها على الحاجة .[59]

أمّا منهجهم في التأويل فيتمثل في أنهم يُقدّرون سعة ميدانه ،ويشرعون أبوابه ،وينشطون لأجل ذلك ،وتنطلق به ألسنتهم ،وتطيب نفوسهم إذا كان النصّ قديما لواحد من الأولين ،أما المتأخر فلا يرون له نصيبا ن ذلك [60]

الخاتمة :

وفي آخر هذه الدراسة يمكن تحديد أهم النتائج التي توصلت إليها وهي على النحو الآتي:

1-أنّ الأدب والنّقد يتّصلان اتّصالا وثيقا بعلم النّفس ذلك أنّ الأديب في كلّ ما يصدر منه من نشاط أدبي يستلهم تجاربه النفسية ،والعقلية ،ولهذا صدق من قال :الأدب هو مرآة عقل الأديب ونفسه .

2-أنّ قيمة النّقد اللّفظي عند النّقاد تكمن في أنّ النقاد يغلب عليهم أنهم أهل معان ،وطالما أوصى النقاد الكاتب ،والأديب ،والمبدع بضرورة معرفة اللغة ،وإتقان النّحو العربي وأبوابه ،وفصوله ومباحثه ،وألزموهم إدمان الإعراب ليلا ونهارا ،حتى يصير صاحب مَلكة جيّدة .

3-أنّ الجديد في نقدهم النّحوي والصّرفي يتمثّل في أنّ ملاحظاتهم النّقدية بفوائد جليلة ،يصعب حصرها ونلمس ذلك في أربعة أمور تستحق التنويه بها ،والوقوف عليها وتتعلق بمباحثهم النحوية والصرفية وهذه الأمور هي :

أ- أحكام ذوقية خاصّة .

ب- مباحث مهمة لم تكن مشهورة في كتب النّحو .

ج-تحقيقات دقيقة في المسائل النحوية والصرفية .

د-شواهد وروايات جديدة .

4-أنّ موقف النقاد من النحويين هو أنّ من خير مناهجهم في هذا الموضوع أنهم يعذرُون الأديب إن هو اتّبع مذهبا نحويا معروفا ،ولو كانوا لا يميلون إليه ولا يعجبهم مثلما فعل ابن وكيع بالمتنبي ،وأ،ذ في كلامهم مايوحي بميلهم للمذهب البصري أكثر من ميلهم للمذهب الكوفي .

5-أنّ منهج النّقاد يشمل خمسة أمور أساسية هي :

أ-منهجهم في البحث النّحوي والصّرفي .

ب-منهجهم في السماع والرواية .

ج-منهجهم في القياس .

د-مذهبهم في الضرورة الشعرية .

ه-منهجهم في التأويل .

الهوامش

[1]-ينظر تاريخ النّقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرّابع الهجري ،للأستاذ طه أحمد إبراهيم،بيروت ،ص51.

[2]-ينظر :النّقد النّحوي والصّرفي عند النّقاد ،د/سعود بن عبد العزيز الخنين ،الرياض ،1428هـ-2007م،ص13.

[3]-المثل السائر لإبي أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ،تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ،دار الرفاعي الرياض ،58/1.

[4]-نصرةالثائر لصلاح الدين الصفدي ،تحقيق :محمد سلطاني ،المجمع العلمي دمشق ،صص63.

[5]-عيارالشعر لابن طباطبا ،تحقيق:عبد العزيز المانع ،دار العلوم ،الرياض ،1405،ص6

[6]-نقد الشعر لقدامة بن جعفر ،تح:كمال مصطفى ،مكتبة الخانجي ،مصر ،1963م،ص197.

[7]-ينظر النقد النحوي والصرفي عند قدامى النقاد ،ص14.

[8]-المثل السائرفي أدب الكاتب ،لابن الأثير ضياء الدين 86/1.

[9]-المثل السائر 66/1.

[10]-المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره لابن وكيع ،تح:محمد الداية ،دار قتيبة ،دمشق ص288.

[11]-المنصف في نقد الشعر ص153.

-ينظر: الوساطـــــة بين المتنبي وخصومه ،للقاضي الجرجاني تح:علي البجاوي ،ومحمد أبي الفضل ،ط1،1364هـــ،ص452.والنقد النحوي

[12]والصرفي عند قدامى النقاد ص16.

[13]-ينظر النّقد النّحوي والصّرفي عند قدامى النّقاد ،ص19وما بعدها.

[14]-المثل السائر 426/1.

[15]-عبث الوليد ،لأبي العلاء المعري ،تح: ناديا علي الدولة ،ص402.

[16]-سرّالفصاحة لابن سنان الخفاجي ،شرح عبد المتعال الصعيدي ،مطبعة صبيح ،1389هـــ،ص78.

[17]-المثل السائر 299/1-300.

[18]-سر الفصاحة ص 78.

[19]-هذا لفظ الصاحب بن عبّاد في :الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص63،ونُقل عنه في يتيمة الدّهر 159/1.

[20]-المثل السائر 451/1.،وينظر :النقد النحوي والصرفي عند قدامى النقاد ص22.

[21]-المثل السائر 421/1.

[22]-الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء ،للمرزباني ،الطبعة السلفية .294.

[23]-الرسالة الموضّحة ،للحاتمي ،تح : محمد يوسف نجم،1385هـــ ،دار صادر،ص31.،وينظر :النقد النحوي والصرفي ص24.

[24]-المثل السائر 431/1.

[25]-عبث الوليد ص27.

[26]-النقد النحوي والصرفي عند قدامى النقاد ،ص26.

[27]-المرجع السابق ص 265 ومابعدها .

[28]-الموشّح ص69.،وينظر :النقد النحوي والصرفي ص27.

[29]-المثل السائر 342/1.

[30]-المنصف في نقد الشعر ص217.

[31]-العمدة 72/2.

[32]-الموشح ص374.

[33]-الموشّح ص374.

[34]-الوساطةبين المتنبي وخصومه ، ص4

[35]-عبث الوليد ص508.

[36]-عبث الوليد ص209.

[37]-عبث الوليد ص341.

[38]-الإبانة عن سرقات المتنبي ص53.

[39]-أكّد ذلك ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء 21/1.

[40]-عبث الوليد ص27.

[41]-الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص426.

[42]-عبث الوليد ص509.

[43]-المثل السائر 69/1،وهو أيضا في يتيمة الدّهـــر 155/1.وينظر :النّقد النحوي والصرفي ص218.

[44]-المآخـــذ على شرّاح ديوان المتنبي لابن معقل الأزدي ،تح:عبد العزيز المانع ،مركز الملك فيصل ،الرياض 1422هـــ،27/5.

[45]-ينظر النّقد النحوي والصرفي ص37وما بعدها .

[46]-الكتاب لسيبويه /62.

[47]-الوساطة بين المتنبي وخصومه ،ص471.

[48]-قراضة الذهب في نقد العرب، لابن رشيق ،تحقيق :الشاذلي بو يحيى ،الشركة التونسية ،1972مـــ.

[49]-الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف 1966،مـــ،47/1.

[50]–البيان والتبيين للجاحظ 97/1.

[51]–المصدر السابق 16/3.

[52]–سورة ص الآية :86.

[53]– الوساطة ص9، و ينظـــــر : النقد النحوي والصرفي ص333.

[54]–نقد الشعرلقدامة بن جعفر، ص206.

[55]–الشعر والشعراء 35/1.

[56]–العمدة 260/1.

[57]–نقد الشعر ص197.

[58]–ينظر النقد النحوي والصرفي ، ص363.

[59]*ينظر المصدر السابق ص375.

[60] –ينظر المصدر السابق ص383.